العلاقات التاريخية والحضارية والعسكرية بين دويلات وممالك ساحل افريقيا الشرقية و دولة اليعاربة بعمان بين عام(1497م-1698م).

Historical, civilizational and military relations between the kingdoms and states of the coast of Eastern Africa and the state of the war in Amman between (1497- 1698).

أ/عمر جبري.
جامعة الجزائر- 02- أبو القاسم سعد الله.

-الملخص:

لقد سميت الدول الاسلامية التي تأسست على طول الشريط الساحلي الممتد من مياه البحر الأحمر وخليج عدن باسم دول"**الطراز الإسلامي**"، لأنها كانت تشبه في صورتها المتناثر شكل الطراز في الثوب وهي نفسها الدول التي عانت من ظروف الغزو البرتغالي والحبشي لها مع مطلع القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، أما بقية الدول الافريقية المطلة على المحيط الهندي فقد أطلق عليها اسم "**بر السومال**" (1) أو"**بر الزنج**"(2)، ومع مطلع القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي عرفت دول ساحل شرق افريقيـا وإماراتها العربية، استكمال مقوماتها الاسلامية والدينية نتيجة الهجرات التي وفدت اليها من سواحـل الخليج العربي وبالخصوص من سواحل عمان واليمن وشبه الجزيرة العربية، بسبب التقارب الجغرافـي لهذه الدول من جهة وبسبب الموقع الجغرافي المقابل جنوبا لدول الطراز الاسلامي، حيث لعبت التجارة بين دول الساحل الشرقي لإفريقيا ودول الخليج العربي حلقة هامة في تبادل الثقافات وانتشار الاسلام بصورة متزايدة عن طريق التجارة والمصاهرة بين شعوب وقبائل دول الساحل الشـرقي لإفريقيا(3).

بهذا أصبح لدى العرب المسلمين دوافع جديدة من أجل الاستقرار بهذه المناطق الافريقية وإقامة كيانات سياسية عربية ذات خصائص إسلامية، مما زاد في عدد الوافدين العرب القادمين من مختلف بقاع العالـم الاسلامي مشكلين بذلك العديد من المدن والإمارات الاسلامية التي تبدأ من سواحل الصومال شمالا حتى موزنبيق ومصب نهر الزمبري جنوبا(4)، ان هذا الانتشار العربي الاسلامي في هذه المناطق ما هو إلا مرحلة جديدة من مراحل التوسع الاسلامي الذي جاء نتيجة جهود أفراد وجماعات قدمت الى هذه المناطق قصد التجارة والاستقرار، اذ حتم عليهم عامل الجوار الذي به انتقلت التجارة والإسلام واللغة الى هذه المناطق(5)، قد نتج عن اندماج المهاجرين العرب بالأفارقة لغويا ودينيا وثقافيا وحضاريا تشكل جنس جديد هو الجنس "**السواحلي**" الذي نتج عن زواج العرب مع الأفارقة والذي بدوره يتكلم اللغة السواحلية (*)التي تشبه اللغة العربية الى حد بعيد لكونها مستقاة من أصولها اللغوية لكن اختلاف التحدث بها يكمن في نوع القبائل التي احتكت مع المسلمين من حيث كثرة التعامل التجاري بها معهم أو قلته(6).

من بين أهم الكيانات السياسية التي ربطت علاقات حضارية وتاريخية وعسكرية مع ممالك ودويلات ساحل افريقيا الشرقية هي دولة اليعاربة وحكامها بعمان(1624م-1711م)، والإشكالية المطروحة في هذا السياق التاريخي هي:

1/الى أي حقبة زمنية تعود وترجع العلاقات العمانية مع ممالك ودويلات ساحل افريقيا الشرقية؟ ما حقيقة انتشار الاسلام من عمان الى ساحل افريقيا الشرقية؟.

2/ما هي مظاهر العلاقات الحضارية والاقتصادية والعسكرية والدينية بين دولة اليعاربة ودول وممالك ساحل افريقيا الشرقية خاصة بعد تحرير اليعاربة لمملكة زنجبار وبتة عام 1652م وتحريرهم لقلعة المسيح بممباسا عام 1689م؟.

الكلمات المفتاحية: ساحل افريقيا الشرقية، عمان، الخليج العربي، العلاقات الحضارية، البرتغاليين.

Abstract:

The Islamic countries founded along the coastline of the Red Sea and the Gulf of Aden were named after the "Islamic style" because they were similar in their scattered form to the style of the dress. They were the same countries that suffered from the conditions of the Portuguese and Habashi invasion at the beginning of the tenth century AH And the rest of the African countries bordering the Indian Ocean was called "Bar Somalia, and with the beginning of the fifth century atheist ten century AD, the countries of the East Coast of Africa and its Arab Emirates, the completion of its Islamic and religious as a result of migrations that came from the The coast of the Arabian Gulf and especially the coast of Oman and Yemen and the Arabian Peninsula, because of the geographical proximity of these countries on the one hand and because of the geographic location corresponding to the south of the Islamic model countries, where trade between the countries of the East Coast of Africa and the Gulf countries an important link in the exchange of cultures and the spread of Islam increasingly by Trade and trade between the peoples and tribes of the Eastern Sahelian countries of Africa.
Thus, the Muslim Arabs have new motives for the stability of these African regions and the establishment of Arab political entities with Islamic characteristics, thus increasing the number of Arab expatriates From various parts of the Islamic world, to many cities and Islamic Emirates starting from the coasts of Somalia to the north, to Mozambique and the southern Zambri River. This Arab-Islamic spread in these areas is a new phase of Islamic expansion, To the areas of trade and stability, as they were forced to factor in the neighborhood, which moved trade, Islam and language to these areas, the result of the integration of Arab immigrants in Africa, linguistically and religiously, culturally and culturally constitute a new sex is "Swahili" that resulted from the marriage of Arabs P Africans who in turn speak Swahili language, t resemble the Arabic language largely because they are derived from linguistic origins but speak different tribes lies in the type of Muslims with nicked, where the large number of trade by dealing with them or you said.
Among the most important political entities that have linked civilizational, historical and military relations with the kingdoms and states of the East African coast are the rulers of the state of the war in Amman, and the problematic issue in this historical context is:
1 / To what period of time is the return of Omani relations with the kingdoms and states of the East African coast?.
2/ What is the real spread of Islam from Oman to the coast of East Africa ?.
3/ What are the manifestations of economic, military and religious cooperation between the State of the Warlords and the East African coast, especially after the liberation of the War of the Kingdom of Zanzibar in 1652 and their liberation of the castle of Christ in Mombasa in 1689?
4 / What causes the transfer of Omanis to the political capital from Muscat to Zanzibar during the reign of their ruler Saeed bin Sultan Ahmed Al Busaidi between(1608-1632)?.

Keywords: East African Coast, Oman, Arabian Gulf, Civilizational Relations, Portuguese.

1/جذور العلاقات العمانية اليعربية ودورها في انتشار الاسلام بممالك ودويلات ساحل افريقيا الشرقية:

تعود بدايات الاتصال العماني بساحل شرق افريقيا الى حقبة مبكرة في التاريخ أرجعها بعض الباحثين الى مرحلة ما قبل الإسلام(7)، لكن الحدث البارز والأكيد في شرق افريقيا هو هجرة الأميرين العمانيين من أبناء الجلندي الى ساحل شرق افريقيا، حيث ترجع أسباب هذه الهجرة الى الصراع الدائر بين عمان الطامحة للاستقلال الذاتي من جهة، بين الدولة الأموية في دمشق والراغبة في اخضاع جميع المناطق المحيطة بسلطنتها من جهة أخرى، هذا ما دفع "بالحجاج بن يوسف الثقافي" الى توجيه جيش لقمع ثورة سعيد وسلمان ابني عباد بن عبد الجلندي، ما دفع بالأميرين الى الفرار من حملة الحجاج في عام 82 هجرية الموافق لعام 701 ميلادية، أين توجها الى أرخبيل لامو الواقعة حاليا بكينيا والمطلة على ساحل شرق افريقيا(8)، حيث يرجع عدد كبير من الباحثين والمؤرخين بأن سبب توجه الأميرين سعيد وسلمان الجلندي الى الساحل الشرقي لإفريقيا دون غيره من السواحل العربية الأخرى، الى درايتهم المسبقة ومعرفتهم القديمة بالطريق البحري الجنوبي، مع وجود علاقات تجارية بحرية قديمة قدم التاريخ ترجع الى القرن الأول للميلاد بين الملاحين العمانيين وملاحين ساحل شرق افريقيا(9).

ان رحيل هذين الأميرين الى الساحل الشرقي لإفريقيا ساعد على توالي الهجرات العمانية نحو تلك المناطق، حيث كان ذلك الاحتكاك عاملا مهما في تعرف الأفارقة على الإسلام واعتناقهم للدين الإسلامي الذي حمله أولئك الوافدون الجدد(10)، اذ أكدت لنا الدراسات التاريخية بأن التجار العمانيين هم أول من نشر الإسلام في منطقة ساحل شرق افريقيا منذ القرن العاشر للميلاد، فانتشرت بذلك مقولة:**(بأن التاجر العماني حمل اسلامه وسلعته معه فكان تاجرا وداعية في نفس الوقت)**(11).

كما ساعدت الهجرات العمانية الى ساحل شرق افريقيا في ازدهار المدن الساحلية وكثرة المدن المتناثرة على طول الساحل الشرقي، كمقديشو و ماليندي و ممباسا و زنجبار و كلوة و بمبا بحيث اجتمعت في هذه المدن أجناس متعددة من عرب سواء كانوا من عمان أو اليمن أو من حضر موت اضافة الى السكان الأصليين من الأفارقة (12).

أين أشار لنا المؤرخ المسعودي الى سبق العمانيين في الإتصال ببلاد الحبشة وبحر الزنج وصولا الى جزيرة "قنبلوا" أو مدغشقر حاليا في القرن الرابع للهجرة، بقوله:**(ان هؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عمان هم عرب من الأزد)**(13)، ويؤكد لنا ابن بطوطة هذا القول من خلال اشارته الى رحلته البحرية التي أبحر فيها من جزيرة كلوة بساحل شرق افريقيا الى مدينة ظفار بعمان حوالي عام 731 هجرية والموافق لعام 1331م، كما حدثنا كل من المسعودي وابن بطوطة عن رحلتيهما من ساحل شرق افريقيا الى ساحل عمان، حيث ركبا نفس الخط البحري الذي يربط ساحل مدغشقر بساحل عمان، مؤكدين لنا عن وجود ربابنة بحر عمانيين يقودون هذه السفن البحرية التي تنقل البضائع والأشخاص، ما يؤكد لنا أن علاقة التواصل الحضاري والتجاري بين العمانيين وسكان ساحل شرق افريقيا التي تعود الى أزمنة قديمة جدا(14).

كما يؤكد لنا المسعودي عن وجود نشاط تجاري مزدهر بين التجار العمانيين وسكان الساحل الشرقي لإفريقيا، خاصة في مدينة سفالة أي موزنبيق حاليا بقوله:(**وهي أقاصي بلاد الزنج واليها تقصد مراكب العمانيين...**)(15)، الجدير بالذكر أن الإتصال المبكر للعمانيين بساحل شرق افريقيا قد ساعد على وجود هجرات منتظمة للقبائل العربية والعمانية، حيت اتخذ بعضها خيار الهجرة اما لدوافع سياسية أو لدوافع تجارية أو لدوافع تلقائية، هو الأمر الذي ساعد على ظهور مجتمعات افريقية وعربية مسلمة على طول الشريط الساحلي لشرق افريقيا، حيث أشارت لنا كتب التاريخ كذلك عن جود هجرة عمانية جديدة لقبيلة النباهنة(النبهانيين)في أوائل القرن السابع الهجري، أين أسست تلك القبيلة العمانية سلطنة اسلامية وسياسية جديدة لها في مملكة بات ظلت قائمة الى غاية عام 1861م(16).

فلم يكن الوجود العماني في شرق افريقيا فجائيا أو مباشرا بل مر بمراحل متتابعة فقد توطدت الصلات بين عمان وساحل شرق افريقيا، بفعل الصلات التجارية ونتج عن ذلك التواصل قيام التجار العرب بتأسيس مراكز ثابتة على طول سواحل وجزر شرق افريقيا(17)، من خلال هذه المراكز التجارية اختلط العرب بالسكان الأصليين وظهرت بذلك مراكز الإستيطان العربي التي أصبحت فيما بعد الأساس الذي قام عليه الحكم العماني في ساحل شرق افريقيا(18).

لقد ساعدت عدة عوامل على استقرار وتوطين العرب في المنطقة من أبرزها عدم وجود تنظيمات قبلية متماسكة للوقوف في وجه الهجرات العربية أو التصدي لها، الأمر الذي سهل على العرب الاستقرار وبناء الوحدات التجارية التي تحولت فيما بعد الى مراكز سياسية واجتماعية مؤثر في ساحل شرق افريقيا(19)، أي أن الاستقرار العربي في شرق افريقيا حدث بكل هدوء وبدون اللجوء الى القوة والعنف، كما أن مؤرخي تاريخ افريقيا لم يذكروا لنا حروبا أو معارك وقعت بين المهاجرين العمانيين والعرب وبين السكان الأصليين من الأفارقة(20).

2/مظاهر العلاقات العسكرية والدينية والحضارية والاقتصادية بين دولة اليعاربة ودول وممالك ساحل افريقيا الشرقية:

ان حكم دولة اليعاربة لعمان ما بين عام(1624م-1749م)(21)، مكنها من مد نفوذها السياسي عبر البحار والمحيطات وصولا الى سواحل افريقيا الشرقية، توطيد علاقاتها مع المراكز العربية هناك بفضل قوتها البحرية استطاعت هذه الدولة أن تطرد البرتغاليين من الساحل العماني، تطاردهم بعدها في مواقعهم وحصونهم العسكرية سواء في سواحل افريقيا الشرقية أو البحر الأحمر أو في مياه الخليج العربي وحتى في سواحل بلاد الهند بعدها(22)، مكنها من مد نفوذها السياسي عبر البحار والمحيطات وصولا الى سواحل افريقيا الشرقية، توطيد علاقاتها مع المراكز العربية هناك بفضل قوتها البحرية استطاعت هذه الدولة أن تطرد البرتغاليين من الساحل العماني، تطاردهم بعدها في مواقعهم وحصونهم العسكرية سواء في سواحل افريقيا الشرقية أو البحر الأحمر أو في مياه الخليج العربي وحتى في سواحل بلاد الهند بعدها(23).

ولعل الحدث البارز في العلاقات العمانية الإفريقية والمتمثل في مساندة العمانيين اليعاربة لإخوانهم الأفارقة في انهاء الغزو البرتغالي بساحل افريقيا الشرقية، قد ترتب عنه توفر المناخ المناسب لنشر الدين الإسلامي هناك(العلاقات دينية)، ومن هنا تبرز لنا علاقة الوثيقة التاريخية المكتوبة باللغة السواحلية، التي تم العثور عليها في أرشيف مدينة جوا جنوب بلاد الهند وهي تحمل الرقم الأرشيفي التالي: "**325-299-1952**"(24)، هذه الوثيقة ذات القيمة والأهمية التاريخية تكشفت لنا مدى العلاقة التي ربطت كل من دولة اليعاربة في عمان الساحل ومدن ساحل شرق افريقيا، حيث تدعوا في مضمونها العرب العمانيين بعد نجاحهم في طرد الغزو البرتغالي من ساحل شرق افريقيا، الى العودة والرجوع للبقاء والاستقرار في المنطقة وممارسة تجارتهم السابقة بكل حرية(العلاقات الاقتصادية)، فلا فرق بين سواحلي وعربي هكذا وردت العبارات في هذه الوثيقة(العلاقات الحضارية)(25).

3/اليعاربة وتحريرهم لمملكة زنجبار وبتة بساحل شرق افريقيا عام 1652م:

ان الروابط التاريخية والتجارية والدينية التي ربطت ساحل شرق افريقيا بالساحل العماني منذ أزمنة قديمة، ساهمت في اتساع نطاق الصراع العماني البرتغالي وانتقاله الى ساحل شرق افريقيا(26)، خصوصا بعد استرداد اليعاربة لميناء صحار عام 1643م ورجوع حركة التجارة بسواحل عمان بين العمانيين والتجار السواحليين هناك، حيث وصلت أخبار انتصار اليعاربة على البرتغاليين في مسقط وصحار إليهم ما جعل مسلمي ساحل شرق افريقيا يشنون حركات تمردية واستقلالية على حكم التاج البرتغالي هناك، لتكلف بعدها حكومة ملك البرتغال القائد "فرانسسكوا كبريرا"(Cabreira Francisco) لقمع الحركات التمردية واستعادة السيطرة البرتغالية على الساحل الشرقي لإفريقيا(27).

لقد شكل طرد البرتغاليين من ساحل عمان ومسقط الدافع والحافز لنقطة انطلاق اليعاربة خارج حدود عمان، من خلال استجابة دولة الإمام سيف بن سلطان الأول لمطلب مسلمي ساحل شرق افريقيا وعلى رأسهم ملوك مملكة زنجبار وبتة(28)، كانت أولى بدايات تلك الهجومات البحرية على الغزو البرتغالي في ساحل افريقيا الشرقية عام 1652م، حين تعرضت الحامية البرتغالية بزنجبار الى القصف العماني ما أدى الى تخريبها نهائيا، لينتقل الأسطول العماني بعدها الى مدينة بتة وفازا أين تمكن كذلك من السيطرة عليهما وطرد القائد كبريرا وتخريب أسطوله البحري(29).

كما أن ادراك اليعاربة لضرورة تطوير أسطولهم البحري وتجديده والذي يعتبر سر نجاحهم في اكمال معاركهم ضد البرتغاليين بساحل شرق افريقيا، لأن أسلوب الصراع هو صراع بحري بدرجة أولى بين الطرفين، لذلك أخذ اليعاربة يدعمون ويعززون أسطولهم البحري بجلب الأخشاب من الساحل الغربي للهند، صنع الأشرعة في صحار وبناء السفن في مطرح وصور وتطوير نمطها وفق الطراز الأوروبي الحديث(30).

4/اليعاربة حصارهم لقلعة ممباسا وتحريرهم النهائي لساحل شرق افريقيا عام(1696م-1698م):

ان ارتباط أوضاع ساحل شرق افريقيا مع تغير الأحداث في دولة اليعاربة بعمان ليس بالأمر الغريب علينا، بل أصبح أمرا مؤكدا من خلال تأثير أوضاع عمان الداخلية والخارجية السياسية والعسكرية والاقتصادية، على جميع الأحداث التي تجري في ممالك ساحل افريقيا الشرقية، عليه ظل الغياب العماني على ساحل شرق افريقيا السمة البارزة منذ بداية الصراع السياسي على حكم عمان بين الأخوين بلعرب بن سلطان وسيف بن سلطان الأول(1688م-1692م)، حيث انتظر سكان ساحل شرق افريقيا أشد انتظار نهاية هذا الصراع بفارغ الصبر، عودة العمانيين اليعاربة لتحريرهم من الغزو البرتغالي(31)، كما أن تطور الأحداث في الخليج العربي بين السفن التجارية البرتغالية والعمانية حال دون ارسال اليعاربة لأساطيلهم الحربية لإنقاذ مسلمي ساحل شرق افريقيا، حيث تعمد البرتغاليون اشغال حكام اليعاربة بأوضاع منطقة الخليج العربي لتشتيت انتباههم عن ساحل شرق افريقيا، رغبة منهم في اعادة تحصين قلاعهم واستردادها من أيدي السكان المحليين والقوات العمانية هناك(32)، لكن لم يأتي علينا أواخر عام 1695م إلا وقد تمكن الإمام سيف بن سلطان الأول، من اعادة هيكلة وترتيب البيت العماني من جديد، ذلك بتحديث قواته الحربية وتجديد أسطوله البحري والقضاء على امكانية التحالف العسكري الاقتصادي الفارسي-البرتغالي، الذي كان يستهدف زعزعة الوجود العماني في الخليج العربي(33).

ان تمكن الإمام سيف بن سلطان الأول من انجاز هذا القسم الكبير من سياسته الداخلية والخارجية كذلك، جعل عمان في عهده دولة بحرية مرهوبة المكانة مرموقة السمعة في مياه البحار الشرقية والخليجية، حيث كانت الأوضاع خلال فترة حكمه مهيأة للتوجه من أجل استكمال سياسة اليعاربة الخارجية اتجاه منطقة ساحل شرق افريقيا(34)، خصوصا اذا نظرنا الى حجم الإمكانيات المالية والحربية التي كانت متاحة لتحقيق الهدف الجيو-استراتيجي للعمانيين اليعاربة سياسيا واقتصاديا ودينيا، وخلال هذه الإنجازات العسكرية والسياسية التي حققها الإمام سيف بن سلطان الأول لليعاربة في مياه المحيط الهندي والخليج العربي، بعد وصول أخبار تحسن أوضاع عمان الداخلية والخارجية الى سكان ساحل شرق افريقيا(35).

قام أعيان منطقة ساحل شرق افريقيا بإرسال وفد دبلوماسي رفيع المستوى الى الإمام سيف بن سلطان الأول، حيث تكون هذا الوفد من كبار رجال الدين والعلماء وشيوخ القبائل الإفريقية والسواحلية، كان الهدف من وراء ارسال هذا الوفد الى عمان هو تقديم الاعتراف بالولاء والطاعة لحاكم اليعاربة الجديد سيف بن سلطان الأول، اضافة الى طلب يد العون والمساعدة العسكرية من دولة اليعاربة لتخليصهم من الغزو البرتغالي هناك(36)، لقد قام حاكم اليعاربة بالترحيب بالوفد القادم اليه وتقديم وعد له بتخليص منطقة ساحل شرق افريقيا من الغزو البرتغالي هناك، كما تم تقديم كتاب من طرف هذا الوفد لسيف بن سلطان الأول ويوجد بداخل هذا الكتاب طلب من سكان ممباسا وبعض ممالك الساحل بضرورة تدخل اليعاربة

هناك، ما شكل دافعا معنويا قويا لدى حاكم اليعاربة لمواصلة تحرير ساحل شرق افريقيا، مع تركيز جهوده العسكرية على مركز البرتغاليين الهام في الساحل وهو قلعة المسيح بممباسا(37)، لقد كانت أولى خطوات استعداد سيف بن سلطان الأول، تجهيزه لأسطول بحري مكونة من سبعة عشر سفينة حربية، مختلفة الأحجام والأنواع تحمل معها ما يقارب ثلاثة ألاف مقاتل(38).

حيث أسندت مهمة قيادة هذه الحملة البحرية من طرف الإمام سيف بن سلطان الأول الى القائد العماني "مبارك بن غريب المزروعي" عام(1696م-1698م)، هو من بين سلالة أسرة المزارعة بعمان والتي لعبت دورا هاما في حكم مملكة ممباسا بعد تحريرها عام 1698م، حيث وصلت الحملته العمانية الى ساحل شرق افريقيا في غضون شهر مارس عام 1696م، أين تم انزال بعض قوات الحملة في مملكتي لامو وبتة من أجل مدهم بالسلاح والعتاد الحربي لمساندة جيش اليعاربة، ايقاف أي تدخل برتغالي قادم من ميناء ديو بالهند، بعدها اتجه الأسطول العماني المتبقي الى ميناء ممباسا الرئيسي في منطقة "كيليندييني"(39)، كانت القوات البرتغالية تراقب كل تحركات الأسطول العماني خطوة بخطوة، ليجهز البرتغاليون أيضا قوة بحرية كبيرة قدمت من ميناء جوا بالهند لحماية وتعزيز مراكزهم هناك(40).

لكن توقف الأسطول العماني في ميناء كيليندييني بممباسا قبل وصول الأسطول البرتغالي القادم من ميناء جوا بالهند، حتم على السفن البرتغالية الرسو في ميناء "سان أنطونيو" القريب من قلعة المسيح بممباسا، الذي لا يستطيع تقديم أي دعم عسكري حقيقي للحامية البرتغالية الموجودة في القلعة بسبب بعد موقعه القتالي عن قلعة ممباسا، ما يعرقله من مهاجمة السفن العمانية هناك والتي اتخذت لنفسها موقعا قتاليا فعالا(41).

لقد استمر تقدم الأسطول العماني من ميناء كيليندييني الإستراتيجي الى غاية قلعة المسيح التي تم تطويقها ومحاصرتها من طرف السفن العمانية من كل جهة، حيث استمر الحصار العماني المضروب على قلعة اليسوع مدة ثلاثة وثلاثين شهرا كاملا(42)، لتنطلق المدافع العمانية بضرب القلعة وتدمير جميع الحاميات والحصون والأبراج المحيطة بها والمشيدة لحمايتها، فلم يعد بإمكان قائد قلعة ممباسا "جواو دو رودريغو" (Joao De Rodriguer) فعل أي شيء لفك هذا الحصار(43).

لكن الشيخ "داوود" زعيم قبيلة "فازا" بساحل شرق افريقيا يعتبر واحدا من بين أكثر من ساهموا بشكل كبير في تقديم يد العون والمئونة للقوات البرتغالية المحاصرة على مدار ثلاثة وثلاثين شهرا كاملا في قلعة المسيح بممباسا، الدفاع عن القلعة كذلك بمساعدة مجموعة كبيرة من المرتزقة المأجورين من طرفه، ما كان سببا رئيسيا في صمود الجنود البرتغاليين لمدة طويلة

رغم الحصار المفروض عليهم، حيث يعتبر الشيخ داوود حسب المصادر العمانية والبرتغالية المعاصرة من بين أشد الأشخاص الموثوق بهم والمتعامل معهم لدى القادة البرتغاليين في ساحل شرق افريقيا على مدار سنوات طويلة(44).

هذا ما دفع بحاكم اليعاربة الى تقديم تعزيزات عسكرية اضافية لجنوده لتحرير قلعة ممباسا، بسبب تواصل الصمود البرتغالي نتيجة تواطؤ بعض الخونة من الأفارقة السواحليين مع البرتغاليين(45)، غير أن انتشار وباء الطاعون القاتل بين الجنود البرتغاليين داخل القلعة كان سببا كافيا لموت المئات منهم، اضافة الى انتشار العدوى أيضا خارج أسوار قلعة ممباسا ما ساهم في اصابة بعض الجنود العمانيين بعدوى الطاعون القاتل(46)، غير أن ادراك حاكم اليعاربة بضعف البرتغاليين وفشل محاولاتهم في فك الحصار العماني، عدم قدرتهم على المواجهة المباشرة معهم جعل الإمام سيف بن سلطان الأول، يوجه تعليماته النهائية لقائد الحملة العمانية على ممباسا "مبارك بن غريب المزروعي" لفتح القلعة وإنهاء الحصار المفروض عليها، ليستمر الهجوم العسكري حوالي شهرين كاملين من بداية شهر أكتوبر الى غاية شهر ديسمبر عام 1698م(47)، أين تمكن اليعاربة من خلاله السيطرة على الطريق البري الذي يربط بين مدينة ممباسا وقلعتها، تدمير مركز القيادة البرتغالية في القلعة والمطل على واجهة البحر، لتستلم أخيرا البحرية البرتغالية وقائد الحامية بقلعة ممباسا، الذي تأكد لنا المصادر العمانية المعاصرة على أنه الشيخ داوود زعيم قبيلة فازا الموالي للبرتغاليين في ساحل شرق افريقيا(48).

بعد سقوط قلعة المسيح بممباسا دخل العمانيون اليعاربة القلعة ووضعوا علم دولتهم الأحمر اللون على برج القلعة، كرمز من رموز الانتصار النهائي وتحرير مدينة ممباسا وقلعتها من الغزو البرتغالي عام 1698م، قد شدد الإمام سيف بن سلطان الأول على ضرورة استكمال سياسة اليعاربة ضد البرتغاليين في منطقة ساحل شرق افريقيا، بتحرير جميع ممالك الساحل مستعينا في ذلك بالقوى المحلية بساحل شرق افريقيا، ليتمكن اليعاربة بعدها من تحرير زنجبار وبمبا وبتة وكلوة الموجودة كلها في القسم الشمالي من ساحل شرق افريقيا، ما عدا مملكة موزنبيق التي بقيت مركزا معزولا للبرتغاليين هناك(49).

كما قام الإمام سيف بن سلطان الأول بتعيين "ناصر بن عبد الله المزروعي" من أسرة المزارعة بعمان حكاكم على مملكة ممباسا، اضافة الى تعينه لأسرة الحارث كحكام على مملكة زنجبار وتعيينه على مملكة بتة حكاما من أسرة النباهنة العمانيين كذلك، تبعت بمبا كذلك في تسيير شؤون حكمها لحاكم ممباسا أيضا، بينما أبقى على المدن الأخرى في الساحل الشرقي لإفريقيا تحت حكم شيوخ القبائل المحليين، المتعاونين مع اليعاربة ضد الغزو البرتغالي هناك، وانضمت مملكة مقديشوا لحكم اليعاربة العمانيين سلميا كذلك، بذلك حكم العمانيون اليعاربة أهم الممالك الإسلامية في ساحل شرق افريقيا خلال بداية النصف الثاني من القرن السابع عشر للميلاد(50).

يلخص لنا ابن رزيق سياسة الإمام سيف بن سلطان الأول في تحقيق استراتيجية العمانيين اليعاربة داخليا وخارجيا سياسيا وعسكريا واقتصاديا، سواء في الخليج العربي أو في ساحل شرق افريقيا(51) ، بقوله:**(فلم يزل سيف بن سلطان اماما عادلا، منصفا بين الرعية رادا قويهم عن ضعيفهم وأذعنت له القبائل من عمان، وغيرها من الأمصار وحارب النصارى في أوطانهم، وأخرج بعضهم من قراهم، فاستسلم منهم ممباسة والجزيرة الخضراء(بمبا) وبتة وكلوة، وغيرها من البلدان وعمر عمان وأجرى فيها الأنهار وغرس فيها النخيل والأشجار، وقويت عمان به وصارت خير دار)**(52).

من خلال المقاربة التاريخية التي قمنا بها نستنتج بأنه من بين أسباب مساعدة حكام اليعاربة العمانيين لمسلمي ساحل شرق إفريقيا عسكريا ودينيا وحضاريا هو عمق العلاقات التجارية والحضارية والدينية الموغلة في التاريخ بين شعبي البلدين، والتي تعود الى فترة ما قبل الإسلام(53)، حيث أن اكتفاء الحكام اليعاربة بالسيادة الاسمية فقط على منطقة ساحل افريقيا الشرقية من ممالك ودول سواحلية وإفريقية، لا يعني بالضرورة ما ذهب اليه غيرهم من حكام عمان من بعدهم كالبوسعيديين أنفسهم، الذين أبو إلا أن تكون السيادة العمانية على منطقة ساحل شرق افريقيا فعلية ومطلقة وليست اسمية فقط(54).

5/الهوامش والإحالات:

(1) ابن ماجد شهاب الدين أحمد، الفوائد في أصول علم البحر والقواعد، تحقيق ابراهيم خوري وعزة حسن، نشر مجمع اللغة العربية، دمشق، 1971، ص ص 249-267، و أنظر أيضا: سليمان المهري أحمد بن أحمد، العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية، تحقيق ابراهيم خوري، ج01، نشر مجمع اللغة العربية، دمشق، 1970، ص ص 86-87.

(2) ابن ماجد، نفسه، ص 170، وأنظر كذلك: سليمان المهري أحمد بن أحمد، المنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر، تحقيق ابراهيم خوري، ج02، نشر مجمع اللغة العربية، دمشق، 1980، ص ص 54-55.

(3) شوقي عطاء الله الجمل، تاريخ كشف افريقيا و استعمارها، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1971، ص 36.

(4) جمال زكريا قاسم، الروابط العربية الافريقية قبل حركة الكشوفات الجغرافية، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1977، ص 12.

(5) المغربي أبوا الحسن علي بن موسى بن سعيد، الجغرافيا، تحقيق اسماعيل العربي، ط1، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، 1970، ص ص(81،82).

(*) اللغة السواحلية: هي لغة ظهرت في سواحل افريقيا الشرقية نتيجة احتكاك التجار العرب ومعاملاتهم التجارية مع القبائل الإفريقية، وهجرة العديد من سكان عرب الخليج وعمان واليمن وشبه الجزيرة العربية الى هذه المناطق وتصاهرهم مع سكان افريقيا الشرقية، ما أنتج لهجة جديدة سميت بالسواحلية لأنها وليدة من الساحل الإفريقي وهي لغة تكتب بحروف عربية أصيلة كذلك كما امتدت أيضا حتى أدغال افريقيا الوسطى والاستوائية وحوض الكونغو، أنظر: باتيبو، <<اسهام اللغة العربية في انماء الغة السواحلية وتطويرها>>، الاسلام اليوم، السنة 1984، العدد02، المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الدار البيضاء، ص ص 44-45، وأنظر كذلك: سبنسر ترمنجهام، الاسلام والمسلمون في شرق إفريقيا، ترجمة محمد عاطف النووي، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1974، ص 40.

(6) Salim A.I, The Swahili Speaking peoples of Kenya Coast, Neirobi, 1973, p. 76.

(7) زياد بن طالب المعولي، <<العمانيون ونشر الإسلام والثقافة العربية في شرق افريقيا>>، المؤتمر الدولي الإسلام في افريقيا، السنة 2006، العدد 10، جامعة افريقيا العالمية، ليبيا، ص 425.

(8) محمد عبد الله النقيرة، انتشار الإسلام في شرقي افريقيا ومناهضة العرب له، دار المريخ للنشر، السودان، 1982، ص 43.
(9) أحمد محمود المعمري، عمان وشرقي افريقيا، ترجمة محمد أمين عبد الله، ط 02، وزارة التراث والثقافة، عمان، 2016، ص 46.
(10) زياد بن طالب المعولي، نفسه، ص 426.
(11) رجب محمد عبد الحليم، العمانيون والملاحة والتجارة ونشر الإسلام، مكتبة العلوم، عمان، 1989، ص 188.
(12) زياد بن طالب المعولي، نفسه، ص 426.
(13) المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج02، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1986، ص 107.
(14) ابن بطوطة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن ابراهم اللواتي، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ط01، تحقيق طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ص 258، وأنظر كذلك: أبي الحسن بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط 01، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 2005، ص 108.
(15) المسعودي، نفسه، ص 06.
(16) فاضل محمد عبد الحسين، عمان في عهد أحمد بن سعيد(1749م-1783م)دراسة في التاريخ السياسي، رسالة ماجيستار، جامعة بغداد، كلية العلوم والتربية، 1988، ص 260.
(17) حسن ابراهيم حسن، انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى شرقي القارة الإفريقية وغربها، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1957، ص 125.
(18) A. H. PRINS, The Swahili speaking peoples of Zanzibar and the East African Coast Arab-Swahili, London, 1961, p. 34.

(19) جمال زكرياء قاسم، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1975، ص 13.
(20) شوقي عطا الله الجمل، تاريخ كشف افريقيا واستعمارها، ط01، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1971، ص 37.
(21) عائشة اليسار، دولة اليعاربة في عمان وشرق إفريقية(1624م-1741م)، ط01، دار القدس للنشر، بيروت، 1975، ص 87، وأنظر أيضا: غانم محمد رميص، قيام حكم سلالة اليعاربة وانهياره في عمان(1624م-1749م)، دراسة في التاريخ السياسي، رسالة ماجيستار(غير منشورة)، معهد البحوث والدراسات، بغداد، 1987، ص 627.
(22) صالح محمد العابد، <<تحرير ساحل عمان وانهيار الإمبراطورية البرتغالية في الشرق>>، مجلة آفاق عربية، السنة 1985، العدد 03، ص 43.
(23) يعود تاريخ بناء هذا الحصن الى عام 1593م عندما قام كبير المهندسين في حكومة الهند البرتغالية "جون بابتست كايراتوا" Baptist (Jhon cairatt)، ببناء هذا الحصن على شكل قلعة كبيرة تشرف على جميع سواحل مدينة ممباسا، أين انتهي من بناء هذا الحصن في عام 1630م ليصبح هذا الحصن من أعظم حصون البرتغال في شرق افريقيا، من أمنعها كذلك ليعرف فيما بعد باسم حصن اليسوع(fort Jesues)، أنظر:
(24) Boxer. C, Fort Jesues and the Portuguese in Mombasa for 1595-1927, London, 1961, p. 127.
(25) Coupland. R, East Africa and Its Invaders, London, 1938, p.p. 75-89.
(26) Livros das moncots do Riewomr : A 12th -18 century Swahili Letter from kilwa kislwani(being astudy)of flio from Goa Archives Africa and U, Bersec, babd, 1994, p. 77.
نقلا عن: م.د حسين علي فليح، <<زنجبار دراسة تاريخية للوجود العماني في شرق افريقيا(1806م-1856م)>>، مجلة كلية التربية الأساسية، السنة 2010، العدد 64، جامعة المستنصرية، القاهرة، ص 64.
(27) ان مرسل هذه الوثيقة هي حاكم مدينة كلوة والتي اسمها "فاطمة بنت محمد الكبير" وهي واحدة من بين ملكات الساحل الشرقي لإفريقيا، حيث عاصرة في فترة حكمها ملكات مدن الساحل الشرقي مثل:السيدة عزيزة حاكمة زنجبار والسيدة ميكس حاكمة مدينة ممباسا والسيدة ماسوروا حاكمة مدينة سيو، للمزيد حول هذه الوثيقة أنظر: يحي مطر، <<ملف زنجبار>>، مجلة العربي، السنة 2006، العدد 576، الكويت، ص 64، وأنظر كذلك: م.د حسين علي فليح، نفسه، ص 64.
(28) Coupland. R, op.cit. p. 66.
(29) صلاح العقاد وجمال قاسم، زنجبار، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1959، ص 30.
(30) سالم بن حمود بن شامس السيابي، اسعاف الأعيان في أنساب أهل عمان، المكتب الاسلامي للطباعة والنشر، بيروت، 1965، ص 245.
(31) عبد الرزاق عثمان، <<البرتغاليون في شرق افريقيا>>، مجلة الوثيقة، السنة 07، العدد 14، مركز الوثائق التاريخية بالبحرين، 1989، ص 47.
(32) مايلز س- ب، الخليج بلدانه وقبائله، ترجمة محمد أمين عبد الله، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط، 1982 ، ص 195.
(33) محمد محمود محمدين، <<علاقة الجزيرة العربية بشرق افريقية>>، مجلة دار الملك عبد العزيز، السنة 1976، العدد 02، المملكة العربية السعودية ، ص 112.
(34) السيد رجب حراز، افريقيا الشرقية والاستعمار الأوروبي، مطبعة جامعة القاهرة، القاهرة، 1968، ص 40.
(45) أحمد محمود المعمري، المرجع السابق، ص 66.

(36) رودولف سعيد رويتي، سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان البوسعيدي(1791م-1856م)، ترجمة عبد المجيد حسيب القيسي، مركز دراسات الخليج والجزيرة العربية، البصرة، العراق، 1983، ص 90.
(37) نفسه، ص 90.
(38) يذكر لنا المغيري بأن الوفد القادم الى عمان من ساحل شرق افريقيا قد تكون من: الشيخ بن أحمد الملينديني والشيخ تموت بن موترغو الكلنيدني والشيخ موشال بن ندار التجاني...وغيرهم من طوائف الزنوج الأخرى، للمزيد حول هذا الوفد أنظر: سعيد بن علي المغيري، جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، تحقيق عبد المنعم عامر، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1994، ص 105، وأنظر أيضا: أحمد شلبي، تاريخ عمان ونشاطها الداخلي من مطلع الإسلام حتى الأن، حصاد ندوة الدراسات العمانية، ج02، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط، 1980، ص 50.
(39) المغيري، نفسه، ص 105.
(40) عائشة اليسار، المرجع السابق، ص 99.
(41) جمال قاسم زكرياء، دولة البوسعيد في عمان وشرق افريقية(1744م-1861م)، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، 1968، ص 82، وأنظر أيضا: عائشة اليسار، المرجع السابق، ص 96.
(42) الهناني، المرجع السابق، ص 14، وأنظر أيضا: المغيري، المصدر السابق، ص 192.
(43) كريكمان-جي، التاريخ المبكر لعمان الإسلامية في شرق افريقيا، حصاد ندوة الدراسات العمانية، ج 05، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط، 1980، ص 294.
(44) جمال قاسم زكرياء، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1996، ص 114، وأنظر كذلك: جيان، ، ص 321.
(45) Coupland. R, op.cit, p.p. 67-68.
(46) كريكمان-جي، نفسه، ص 289.
(47) المغيري، المصدر السابق، ص 194.
(48) Coupland. R, IDEM, p. 68.
(49) مبارك بن علي الهنائي، <<العمانيون وقلعة ممباسة>>، ترجمة عبد المنعم عامر، مجلة تراثنا، السنة 1980، العدد 09، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط ، ص 14، وأنظر أيضا: سرحان بن سعيد الأزكوي العماني، تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة، تحقيق عبد المجيد حسيب القيسي، ط 04، وزارة التراث والثقافة، المطابع الذهبية، عمان، 2005، ص 113.
(50) السالمي، المصدر السابق، ص 84، وراجع أيضا: جيان، المرجع السابق، ص 324، وأنظر كذلك: جون جورج لوريمر، دليل الخليج العربي، القسم التاريخي، ج05، مطابع علي بن علي، الدوحة، د ت ، ص 117.
(51) ابن رزيق حميد بن محمد، الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، تحقيق عبد المنعم عامر ومحمد مرسى عبد الله، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط، 1977، ص 295، وأنظر كذلك: نور الدين بن عبد الله بن حميد السالمي، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، ج 01، ط 02، تصحيح وتعليق ابراهيم أطفيش الجزائري الميزابي، مطبعة الشباب، القاهرة، 1961، ص 84.
(52) عبد الله بن صالح الفارسي، البوسعيديون حكام زنجبار، ترجمة محمد أمين عبد الله، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط، 1982، ص 114، وأنظر كذلك: أحمد محمود المعمري، المرجع السابق، ص 67.
(53) ابن رزيق، نفسه، ص 295.
(54) رودلف سعيد رويتي، المرجع السابق، ص 91.